هل من نجاة من وهدة الأمية؟! (*)

فى رائعته: "خليها على الله "، روى أديبنا الفذ يحيى حقى قصة من الواقع الذى صادفه والتقطته عدسته الحساسة فى تجواله كمعاون إدارة بريف مصر فى العشرينيات.. القصة لمحتال بالغ الجرأة يستنزف أموال القرويين البسطاء الذين لم تنعم عليهم الظروف بنعمة العلام والنور!.. من الطبيعى أن يمرح مثل هذا النصاب فى وسطهم ويعبث بعقولهم!.. لجأت إليه أسرة بسيطة اجتمع عليها الفقر والجهل فى محنة الصرع الذى نشب فى بنت لها احتار فى علاجها الطب، فلم تجد إلاّ هذا الدجال!.. السكة السهلة لتخدير العقول، أن البنت تلبسها جن.. ما أسرع هذا الخيال فى اجتياح عقول وأمانى الجهلاء.. صدقته سذاجتهم، واستجابوا مستبشرين لطلبه أن يتركوها معه منفردَيْن بالدار.. فالعلاج من الجن يستلزم أن يختلى بالمصروعة بعيدا عن الناس!.. لم يكد الدجال ينصرف بعد" الخلوة "التى طالت، مبشراً إياهم بالشفاء، وموصيا بترك الفتاة لحالها أياما لا تُرهق بسؤال، حتى عاينت الأسرة من فتاتها تحولاً بعد اعتداء بدت آثاره!.. ذهب لب الأب وفؤاده، وطار مشفقا إلى الدجال بمقهاه، لا يقوى على أن يستل غضبه من براثن الخوف والرهبة من عالم الجن المسيطر على ابنته!. بهدوء عجيب تلقاه الدجال، وفاجأه بقوله " ماذا كنت أفعل؟.. لقد استطعت أن أسيطر على العفريت الذى تلبسها وأمرته بالخروج من جسدها.. لم يكن أمام العفريت للخروج إلاّ عن طريقين لا غير،

(*) ٢٠٠٦/١/٢١

أحدهما من عينى الفتاة!.. فماذا كنت أفعل ؟!.. هل كنتم تريدون أن أفقأ عين البنت "؟!!.

لم يحر الأب جوابا، ولا استطاع إلاّ أن يكتم جرحه ويمضى.. حتى الشكوى من جريمة الدجال إلى معاون الإدارة يحيى حقى، لم يجرؤ عليها الأب المكلوم خشية الفضيحة!

والآن، بعد قرابة قرن، هل تقدمنا أو فارقنا الأمية والجهالة التى تأكل معظم بلادنا؟!

يبدو لى من تأملى لحالنا وعراكنا الأخير أو قل تقاتلنا على مقاعد البرلمان، ونعمة المكانة والحصانة، وشكوانا وصياحنا وتأففنا وضيقنا ولوعتنا وحزننا وجزعنا من اقتران البلطجة التى صاحبت القتال - بشراء الأصوات بالمال الذى دخل المعركة بغير حساب، أننا لم نتوقف لنتأمل ونفهم ونعى ونحلل لماذا كانت التلبية والانصياع للغة المال، ولماذا كان سهلا شيوع الخدر حتى تاهت فى أحيان كثيرة بوصلة الاختيار لغير ميزة ظاهرة؟!!.. وانصرفنا فيما صرفتنا أشواقنا الذاتية إليه، عن الشعب - شعبنا! - الذى نركب على أكتافه لنصعد ونعلو إلى حيث سؤدد العضوية والمكانة، وأبهة الصدارة، وترسانة الحصانة!.. شعب فقير حتى النخاع.. فقره مخيف.. فى إزمانه وطول معاناته قد أفقر الفقراء فى كل شىء ... حرمهم من الطعام والسقف والكساء، وحرمهم من العلم والمعرفة والنور، وحرمتهم الأمية المتفشية بنسبة رهيبة من أبسط الملكات اللازمة للاحتكاك بالحياة الجارية احتكاكا إنسانيا واعيا فاهما مدركا.. برغم مضى قرابة قرن على ما يرويه يحيى حقى عن ريفنا المصرى، فإن الحال لا يزال كالحال، الفار من جحيم الريف الذى صار مع انعدام الخدمات مجتمعاً طارداً، يتلقفه الضياع أو العشوائيات بالمدن، ليبقى الحرمان ملازماً الإفقار وصانعا له فى الفهم والتصور، وفى التقدير والسلوك!.. الأمية التى تفشت وبلغت نسبة رهيبة جاوزت

الـ ٧٥٪ وصارت كالحريق الذى يأكل كل احتمال للنمو الإنسانى، هل وقفنا إزاءها وقفة جادة بعيدة عن منطق "برو لعتب" الذى صار يغلف كل شىء لضياع الجد والإخلاص؟!.. هل الأفكار الكبيرة التى نتعاطاها، فى متناول فهم هؤلاء المعذبين الذين أضناهم الجوع والحرمان، وخلت حياتهم من أى بصيص يضىء العقل والفهم، ويعطى للتصويت غاية مرئية فى متناول إدراك هؤلاء الذين يبيتون على الطوى ويعيشون فى ظروف بالغة البؤس والتعاسة؟!.. هل عجيب على المطحون هذا الطحن أن يغريه مبلغ يسيل لعابه وهو لا يجد ما يقتاته؟!.. هل يفرق فى مفهومه للتصويت أن يكون المرشح يمينياً أو يسارياً، فيلسوفاً أو صعلوكاً، صاحب تاريخ وعلم أم صاحب دندرمه ومهيصة، هل تتعاطى الأمية الجهولة المعانى الكبيرة والنظريات الهائلة التى نتشدق بها - نحن المثقفين - ليل نهار؟!.. هل توجد غرابة فى ميل أو انحراف بوصلة التصويت لمن تنهشهم الأمية والجهل والجوع، ويعيشون للآن على الخرافات التى لا تزال مرتعاً هائلاً للدجالين ولكل من يريد أن يركب على جهل هؤلاء المحرومين من أبسط الاحتياجات الآدمية؟!..

الحوار الدائر الآن بين النخبة فى النظريات والأفكار والمفاهيم والاتجاهات والأحزاب والتيارات، هل تصل لغته ناهيك بمقوماته وحججه - إلى البسطاء المشغولين ليلهم ونهارهم بلقمة العيش، المغلوبين على أمرهم، الحائرين فى فهم المشهد الجارى البعيد كل البعد عن حياتهم وما يعانونه فيها من فقر مدقع حتى النخاع فى كل شىء.. فى العقل والعلم والمعرفة والثقافة والفهم، المزامل للجوع والعرى والإملاق والجهل؟!.. إن "الدجال" - أى دجال - لا فرصة ولا سبيل لأحابيله فى عالم يسوده العقل والنور والمعرفة والفهم.. الدجل ليس فقط الدجل بالخرافات التى لا تزال على تفشيها وتلامس - للأسف! - دوائر المتعلمين، وإنما من الدجل أيضا: الدجل السياسى، والدجل

الاقتصادى، والدجل الاجتماعى.. قد يعز على الإنسانية أن تصادر شره الطامع ومآرب المغرض وإغراءات الثرى ودجل النصاب وشطحات الذمم الخربة، ولكن فى متناول الإنسانية - ومتناولنا - تجفيف الينابيع التى ترتع فيها هذه الآفات، هذا التجفيف سبيله الفاعل إضاءة العقول ونشر الوعى، والوعى قوامه العلم والمعرفة والفهم.. إن معركة محو الأمية هى قضية القضايا التى يجب أن تتصدر كل أولوياتنا، هام جداً ان يتعلم الشعب ليصعب خداعه وغشه، ولينال حقه - الذى أغفلناه طويلا - فى حياة آدمية كريمة، يتوفر فيها ما يتوفر لدى الناس فى الدول المتحضرة !.

على مدار سنوات بحت أصوات العقلاء، وتوالت كتابات المفكرين والأدباء للتنبيه لمخاطر تفشى الأمية والجهالة، وخصص يحيى حقى عدداً كبيراً من مقالاته المنشورة بكتاب "هموم ثقافية "للحديث عن الأمية بأنواعها وسبل علاجها، وجاوزها إلى التنبيه لأمية المتعلمين، متسائلا فى حسرة: هل نعيش بفضل قوة اندفاع ذاتى، أم نعيش عالة على الغير؟!.. لا يرضى الأستاذ الكبير بمحض محو الأمية الأبجدية، فيتمنى علاج ومحو الأمية بأنواعها، ويتمنى فيما يتمناه أن نخرج من شرنقة "حشو الحافظة ": أحط أنواع التعليم، إلى باحة التثقيف الذى يعادل بين الملكات العقلية والملكات الروحية، ويربى الذوق والخيال والإحساس بالجمال، هنالك يحس الآدمى بمعنى "العيب" فيجافيه ويتجنبه، ويزول الصدع بين التعليم والثقافة التى من أهم إنتاجها سعة الفهم وسعة الصدر!.

من المخاطر المفزعة أن منابع الأمية ظلت تفيض كل عام، وتلحق أعداداً هائلة بجيش الأمية الذى انتشر فى ربوع مصر، سواء لعدم الالتحاق ابتداءً بالمدارس الابتدائية، أو بسبب التسرب منها، وظلت أعداد الأميين تتفاقم رغم إصدار الدولة القانون ٢١٠ / ١٩٧٢ بفرض التعليم الإلزامى، ورغم الخطة القومية التى تعثرت وأخفقت، ورغم

تشكيل المجلس الأعلى لتعليم الكبار ومحو الأمية، ورغم إصدار القانون ١٩٩١/٨، وتوالى قرارات رئيس الجمهورية ١٩٩١/٤٢٢ بتنظيم هيئة عامة لمحو الأمية وتعليم الكبار والذى عدل بالقرار الجمهورى ٣٤٦ / ١٩٩٤.. فى مناسبة الإحتفال باليوم العالمى لمحو الأمية أطلق رئيس الدولة نداءه فى ١٩٨٩/٩/٨ باعتبار العشر سنوات القادمة عقداً لمحو الأمية وتعليم الكبار، وكرر نداءه فى سبتمبر ٢٠٠٠ أمام المؤتمر القومى للتنمية الاجتماعية، وأوكل مجلس الشورى إلى لجنة عمل وضع دراسة "نحو استراتيجية قومية لمحو الأمية فى مصر "، وتوالت اجتماعات اللجنة التى حضر بعضها وزير التربية والتعليم بتواريخ متتالية فى عامى ٢٠٠٢، ٢٠٠٣، وناقش مجلس الشورى فى أبريل ٢٠٠٣ هذه القضية الهامة، وأصدر توصياته على ضوء التقرير الثرى الضافى الذى أعدته لجنة التعليم والبحث العلمى والشباب، بيد أن الأيام أخذت تمضى، نسمع فيها قعقعة ولا نرى طحنا!!

يبدو أن زحف "المألوف" علينا، والاستسلام لقانونه، أشد من إصرارنا على الخروج من واقعنا المر إلى واقع جديد أكثر سعة وإشراقاً.. إن الإلف والاستسلام للعادة يشكلان مع الزمن وتراكماته آفة مانسميه شرنقة وسلبيات الاعتيد والتى يُعزى إليها هذا الفارق الكبير بين ضخامة أو فخامة ما عسانا نبنيه، وبين تواضع قدرتنا أو أسلوبنا البشرى فى التعامل المتحضر مع هذه الصروح التى يجاوز إيقاع بنائها إيقاع تحضر سلوكنا البشرى. فتغدو الهوة واسعة كالفلق بين صروح مادية هنا أو هناك فى بلدنا، وبين الخواء النفسى والبلادة أحيانا وتردى سلوكنا إلى القاع فى معظم الأحيان، ومع ذلك نحتار ولا تفارقنا الدهشة من المشهد المأساوى الذى دهمنا هذه الأيام !!